مفاتيح الفهم القرآني لمفهوم التفسير من خلال ثلاثية آية الفرقان

صورية شرفاوي، د.عمر حيدوسي - جامعة باتنة

ملخص:

رغم ورود كلمة تفسير مرة واحدة في القرآن الكريم (الفرقان 33)، إلا أنها لم تلق العناية التفسيرية اللائقة بها، ولم يخرج تناول المفسرين لها عن المدلول اللغوي للفسر وهو الكشف والبيان.

وبالرجوع لآية الفرقان ﴿وَ لاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، وباستحضار مفاتيح الفهم القرآني للآية وسياقها، وعبر ملاحظة ثلاثية (المثل الشركي–الحق القرآني–أحسن التفسير) نجد أن التفسير عملية اجتهادية واقعية تهدف إلى حل مشكلات الواقع الإنساني ودحض الشبهات المتجددة حول الحق، من خلال اجتهاد العقل المسلم المسدد بالوحي كمرجعية هادية، محصنة له من أسباب الضلال المؤدية لسوء التفسير، والتي بينتها سورة الفرقان، من إعراض وهجر، واتباع هوى ونسيان ذكر.

الكلمات المفتاحية: الفهم القرآني؛ مفهوم التفسير؛ سورة الفرقان؛ آية التفسير في سورة الفرقان؛ ثلاثية: المثل الشركي؛ الحق القرآني؛ أحسن التفسير.

Summary:

Even the word « explanation: tafsir» is cited in Qur'an only one time in surah el-furquan 33, but we wouldn't find a big interest on it, in the explanations of Qur'an, except some linguistic meanings, like detection.

In reference to the verse and its context, and key words, and by distinguishing the trio (idem-right-explanation), We find that « Tafsir » in the Quoranic contexte is a real work of the muslim mind guided by God to solve the daily problems of human life, and answering its suspicions.

All that must be far from the causes of miss-guidance cited in surah el-Furquan ; such as leaving the truth , following the bad wills and to forget of citations.

Key words: Quranic understanding, the definition of Tafsir, Surat el Forqan, Verse of Tafsir idem, right, explanation.

مقدمة:

تهدف هذه الدراسة إلى بناء مفهوم قرآني لمصطلح التفسير، من خلال استشكال إحصائية قرآنية لافتة، وهي ورود مصطلح "تفسير" في القرآن الكريم في موضوع واحد، وذلك في الآية الثالثة والثلاثين من سورة الفرقان.

والذي زاد من عمق الإشكال، هو عدم إيلاء عناية كافية لوحدة الورود هاته، من قبل المتكلمين في التفسير قديما وحديثا، سواء منهم المفسرون الذين مروا على آية الفرقان مرورا عاديا مستعجلا، وكأن مصطلح التفسير الوارد فيها – لوحدها– ليس عنوان العمل الذي يمارسونه: تفسير القرآن الكريم؛ هذا من جهة، ومن جهة ثانية مرور الباحثين في علم التفسير ومناهجه، الذين رصدوا جهودا متفاوتة الحجم والقيمة للتعريفات اللغوية والاصطلاحية لمصطلح التفسير، دون أن يجدوا في خضم ذلك مساحة لائقة بالاستعمال القرآني الوحيد لهذا المصطلح المحوري في أعمالهم النظرية والتطبيقية.

وحتى تبين الدراسة حجم الفراغ المفهومي الحاصل في تعريف التفسير، فقد عرجت سريعا في مدخلها التأسيسي على تعريف التفسير لغة واصطلاحا عند أشهر المعرفين الذين كان جل من بعدهم عالة عليهم، لتبين – رغم الأهمية العلمية لتلك الجهود– الإغفال غير المبرر للسياق القرآني في التعريف.

ذلك السياق القرآني قدم لنا مفاتيح جاهزة لفهم مصطلح التفسير، إضافة إلى جذره اللغوي وعائلته الدلالية، ونقصد بالمفاتيح مصطلحي المثل والحق.

وقد جاء كل منهما – إضافة إلى مصطلح التفسير ذاته– مقرونا بضميمة دالة موجهة للمعنى.

فقرن مصطلح المثل بأصحابه المفتعلين له الآتين به على شكل ضمير جمع، تعبيرا عن المثل الشركي.

واقترن الحق بالذات الإلهية العلية، معرفا مطلقا خلافا للمثل الشركي.

وختم السياق بالتفسير مقرونا بأفعل التفضيل من الحسن: أحسن التفسير.

وبذلك اكتملت الثلاثية المفهومية التي عالجتها الدراسة: المثل الشركي – الحق الإلهي– أحسن التفسير.

وقد حاولت هذه المقاربة توظيف كل مكنونات النص القرآني نوعا ولفظا وزمانا واشتقاقا وصرفا وسياقا، لتؤطر المفهوم المستهدف بالدراسة، وتحاول جاهدة –على تواضعها– سد جزء ولو يسير من الفراغ الدلالي المثير للتساؤل حول مفهوم التفسير في الاستعمال القرآني.

توطئة:

قبل الولوج إلى مضمون النص القرآني، قليل الألفاظ كثيف المعاني، من المفيد إلقاء نظرة – ولو سريعة – على تعريف التفسير لغة واصطلاحا، لتنطلق الدراسة من خلاصة ما توقف عنده الجهد التعريفي لهذا المفهوم المحوري الهام. مع محاولة طرح مفهوم اصطلاحي أوسع من حدود المادة المتداولة، كمدخل تمهيدي لتأسيس تصور قرآني لمفهوم التفسير.

أولا: تعريف التفسير

الحكم على الشيء فرع عن تصوره، والتصور ينطلق من البناء المفهومي اللغوي والاصطلاحي، وعليه لا يمكننا مقاربة مفهوم التفسير في السياق القرآني قبل تعريفه لغة واصطلاحا.

يعتقد الكثيرون أن هذا الكلام قد ينطبق على المصطلحات المعقدة المتداخلة، أما مصطلح تفسير فلا يحتاج لكبير تعريف، لكونه شائعا معروفا لدى العامة قبل الخاصة، فما جدوى الإغراق في تعريفه لغة واصطلاحا؟

والحق – في اعتقادي– أنه لا يعلو مصطلح –أيا كان– على التعريف، بل إن ما يظن أنه واضح بين هو أكثر ما يحتاج الضبط المفاهيمي، لأن شيوعه وتداوله، مع قلة العناية بضبطه، يشوش على المعنى الأصلي ويحرفه، فيجعله أحوج من غيره إلى التعريف، وهذا حال التفسير.

أ- التفسير لغة:

"التفسير لغة من مادة (فسر) التي تدور حول الوضوح والبيان وكشف المغطّى"[1].

هذه المعاني تشمل كل ما حوى الفاء والسين والراء أيا كان الترتيب وهذا من باب الاشتقاق الأكبر[2]. فـ"الفسر هو الإبانة وكشف المغطى"[3].

و"فسر الشيء فسرا أبانه... والفسر كشف المغطى والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل"[4].

---

[1] – مساعد مسلم عبد الله آل جعفر، أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ط1405،1هـ/1984م، ص 46.

[2] – ينظر: سعاد كوريم، تفسير القرآن بالقرآن، دراسة في المفهوم والمنهج، مقال في مجلة إسلامية المعرفة، السنة 13، العدد 9، صيف 1428 هـ/2007م، ص 82. وأصل المقال بحث مقدم لمؤتمر مناهج تفسير القرآن الكريم وشرح الحديث الشريف الذي نظمته كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية بماليزيا في تموز يوليو 2006 م .والأستاذة سعاد كوريم باحثة في الدراسات القرآنية بجامعة مولاي إسماعيل مكناس المغرب.

[3] – مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ط 1986، 2/ 110.

[4] – أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار صادر–بيروت–لبنان، ط1، 1968، 361/6.

ومن هذا يتبين – كما يقول الذهبي– "أنّ التفسير يستعمل لغة في الكشف الحسي وفي الكشف عن المعاني المعقولة واستعماله في الثاني أكثر من استعماله في الأول"[1].

" فالمعنى اللغوي لتفسير القرآن هو توضيح معانيه وبيانها والكشف عن المراد منها [2]. وكلمة تفسير على وزن تفعيل وصيغة تفعيل تفيد المبالغة والتكرار [3].

فورود كلمة على وزن جديد يفترض إضافة معان ودلالات جديدة تخصص المعنى العام للمادة اللغوية (فعل).

والغريب أن هذا لم يستثمر – استثمارا كافيا– في توظيف المفسرين والدارسين خلال بحثهم اللغوي، فنجدهم يكتفون بالقول أنّ الفسر معناه الكشف والتفسير مثله. وهذا تضييق لسعة لغوية وصرفية تمتاز بها اللغة العربية[4].

ب- التعريف الاصطلاحي للتفسير:

بالعودة لمصنفات التفسير و علوم القرآن نجد حشدا من تعريفات التفسير، رغم أن بعضا منهم يرى أنه أعرف من أن يعرّف، وأنه "من العلوم التي لا يتكلف لها حدّ"[5].

---

[1] – محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط4، 1409هـ/1989م، 15/1.

[2] – أحمد عمر أبو حجر، التفسير العلمي للقرآن في الميزان،دار قتيبة، بيروت–دمشق،ط1، 1991/1411، ص 16.

[3] – أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، المفصل في علم العربية،دار الجيل، بيروت، د.ت، 155/2.

[4] – ينظر: أبو القاسم الزمخشري، المفصل في علم العربية، 155/2.، أشار الزمخشري إلى معنى التكشيف دون كبير استثمار.

[5] – محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، 15/1. وقد تنوقل هذا القول بعد الذهبي منسوبا إليه. ومن اللافت هنا كثرة الأقوال المنسوبة لمجاهيل في قضايا دقيقة ومتفردة كهاته، مع نقل تعاريف لا يعرف صاحبها. وقد لاحظت أن بعض المؤلفين، القدامى خاصة، يؤلف تعريفه الشخصي ثم ينسبه لمجهول، ربما تورعا وتواضعا؟! انظر مثلا صنيع جلال الدين السيوطي في الإتقان في علوم القرآن، 180/2

ومجمل ما قيل في تعريفه أن التفسير من الفسر، وهو الوضوح والبيان والإبانة وكشف المغطى وكشف المراد عن اللفظ المشكل[1]. فتفسير لفظ توضيح معانيه وبيانها والكشف عن المراد منها[2].

والتفسير يستعمل لغة في الكشف الحسي وفي الكشف عن المعاني المعقولة واستعماله في الثاني أكثر من استعماله في الأول [3].

ومن الجلي أن هذه المعاني لا تخرج عن المدلول اللغوي.

أما من حيث الاصطلاح، فقد تعدّدت تعريفات التفسير، لكن أشهرها تعاريف أبي حيان والزركشي.

ركّز أبو حيان الأندلسي في تعريفه على أدوات التفسير.

يعرّف أبو حيان التفسير فيقول: هو "علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك"[4].

بينما ركز الزركشي في تعريفه على مراحل التفسير – وبالضبط التفسير التحليلي–.

---

[1] – أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي: لسان العرب، دار صادر–بيروت–لبنان، ط1، 1968، 361/6.

مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ط 1986، 2/ 110.

وانظر: مساعد مسلم عبد الله آل جعفر: أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ط1405،1هـ/1984م، ص 46.

[2] – أحمد عمر أبو حجر: التفسير العلمي للقرآن في الميزان، دار قتيبة، بيروت–دمشق،ط1، 1991/1411، ص 16.

[3] – محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، 15/1.

[4] – أبو حيان الاندلسي، البحر المحيط، 13/1.

يقول الزركشي: التفسير "علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد _ صلى الله عليه وسلم _ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه" [1].

بينما ركز بعض المعاصرين على غرض التفسير، يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في مقدمة تفسير ابن باديس "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير": "تفسير القرآن تفهيم لمعانيه وأحكامه وحكمه وآدابه ومواعظه، والتفهم تابع للفهم، فمن حسن فهمه أحسن تفهيمه، ومن لم يحسن فهمه لم يحسن تفهيمه، وإن كتب فيه المجلدات وأملى فيه ألوف المجالس"[2].

هناك العديد من التعريفات التي تراوحت بين النسج على منوال السابقين، أو محاولة تفعيل التعريف وإعادة بنائه، لكننا اكتفينا بما سبق لدلالته على المقصود، حتى لا نخرج عن غرض الدراسة الرئيس.

على ضوء تلكم التعريفات – وغيرها– يمكن أن أحاول صياغة تعريف اصطلاحي للتفسير، فأقول:

التفسير عملية علمية اجتهادية تفاعلية مع النص القرآني لفهمه وتفهيمه وتنزيله على الواقع الإنساني عبر استحضار قابليات ذاتية واستيعاب وتجاوز قبليات معرفية وتوظيف وسائط منهجية أداء للواجب وتحكيما للقرآن وتأطيرا للواقع وسعيا لمرضاة الله وجنّته.

ارتأت الدراسة اعتماد هذا التعريف المركب المطول نسبيا، لبيان جملة جوانب متعلقة بالتفسير، لا يمكن تغطيتها بألفاظ قليلة محصورة في مجال واحد؛ فقد بدأ

[1] – برهان الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 13/1.
[2] – الإبراهيمي: مقدمة تفسير ابن باديس، ص 17.

التعريف بوصف التفسير على أنه: التفسير عملية علمية اجتهادية تفاعلية مع النص القرآني.

عرج التعريف على مراحل التفسير فهما وتفهما وتنزيلا: لفهمه وتفهيمه وتنزيله على الواقع الإنساني.

ثم أكد التعريف أدوات التفسير في عبارات مجملة تحتاج تفصيلا وتوضيحا ليس هذا مقامه[1]: عبر استحضار قابليات ذاتية واستيعاب وتجاوز قبليات معرفية وتوظيف وسائط منهجية.

ختم التعريف بغايات التفسير وأهدافه: أداء للواجب وتحكيما للقرآن وتأطيرا للواقع وسعيا لمرضاة الله وجنّته.

بعد هذه المقاربة اللغوية والاصطلاحية لمفهوم التفسير، يمكننا الآن أن نعرض نتاج كل ذلك على السياق القرآني.

ثانيا: التناول التفسيري لآية الفرقان

رغم أن لفظة " تفسير" وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾[2]، إلا أن المفسرين لم يخصصوا لها مساحة معتبرة في تفاسيرهم، لبيان حقيقة التفسير ومفهومه وقضاياه كعلم يمارسونه هم أنفسهم! بل يكتفون غالبا بشرح اللفظ لغة وفي سياق الآية على عادتهم في تفسير النصوص، فكلمة التفسير في الآية، لا تكاد تبتعد عن معناها اللغوي الكشف والبيان. ولا تكاد تجد معنى جديدا يضفيه جو النص وسياقه، إلا معنى التفصيل المنقول عن

[1] – ينظر للتوسع في موضوع أدوات التفسير مقال لي بعنوان: محاولة تجديدية في تصنيف الأدوات التفسيرية، مجلة الإحياء، باتنة، الجزائر، العدد 16، 2013م.

2 – سورة الفرقان: 33.

ابن عباس ومجاهد والضحاك، عبر وسيط طبعا، هو الإمام الطبري.[1] أو ما نقله سعيد بن جبير عن ابن عباس–رضي الله عنه–، وأثبته ابن كثير في تفسيره، " أبين وأوضح وأفصح من مقالتهم" [2].

أما الرازي فيذكر أن التفسير "البيان والظهور وهو الكشف عما يدل عليه الكلام"[3].

وإذا كان الطبري والرازي قد وقفا عند لفظ التفسير – ولو باقتضاب– فإنّ أغلب المفسرين مرّوا عليه مرور الكرام في خضم المعاني المتدافعة في النص القرآني الزاخر.

ولو أخذنا عيّنة منهم كنموذج فقط لتأكيد ما سبق قوله، فيمكننا اختيار تفسير الحافظ ابن كثير في تفسيره لآية الفرقان؛ إذ يقول: "وَلَا يَأْتُونَك بِمَثَلٍ" أَيْ بِحُجَّةٍ وَشُبْهَة " إِلَّا جِئْنَاك بِالْحَقِّ وَأَحْسَن تَفْسِيرًا " أَيْ وَلَا يَقُولُونَ قَوْلًا يُعَارِضُونَ بِهِ الْحَقّ إِلَّا أَجَبْنَاهُمْ بِمَا هُوَ الْحَقّ فِي نَفْس الْأَمْر وَأَبْيَن وَأَوْضَح وَأَفْصَح مِنْ مَقَالَتهمْ قَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ اِبْن عَبَّاس " وَلَا يَأْتُونَك بِمَثَلٍ" أَيْ بِمَا يَلْتَمِسُونَ بِهِ عَيْب الْقُرْآن وَالرَّسُول " إِلَّا جِئْنَاك بِالْحَقِّ " الْآيَة أَيْ إِلَّا نَزَلَ جِبْرِيل مِنْ اللَّه تَعَالَى بِجَوَابِهِمْ وَمَا هَذَا إِلَّا اِعْتِنَاء وَكَبِير شَرَف لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ كَانَ يَأْتِيه الْوَحْي مِنْ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ بِالْقُرْآنِ صَبَاحًا وَمَسَاء وَلَيْلًا وَنَهَارًا سَفَرًا وَحَضَرًا وَكُلّ مَرَّة كَانَ يَأْتِيه الْمَلَك بِالْقُرْآنِ لَا كَإِنْزَالِ الْكِتَاب مِمَّا قَبْله مِنْ الْكُتُب الْمُتَقَدِّمَة فَهَذَا الْمَقَام أَعْلَى وَأَجَلّ وَأَعْظَم مَكَانَة مِنْ سَائِر

1 – ينظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1، 1420هـ/2000م، 266،267/19 وانظر أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1، 1427هـ/206م، 408/15.

2 – الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: مصطفى السيد محمد وآخرون، مؤسسة قرطبة، جيزة، مصر، ط 1، 1421هـ/2000م، 304/10.

3 – فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر الرازي، التفسير الكبير مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1، 1401هـ/1981م، 79/24.

إِخْوَانه الْأَنْبِيَاء صَلَوَات اللَّه وَسَلَامه عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ فَالْقُرْآن أَشْرَف كِتَاب أَنْزَلَهُ اللَّه وَمُحَمَّد صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَم نَبِيّ أَرْسَلَهُ اللَّه تَعَالَى وَقَدْ جَمَعَ اللَّه لِلْقُرْآنِ الصِّفَتَيْنِ مَعًا فَفِي الْمَلَأ الْأَعْلَى أُنْزِلَ جُمْلَة وَاحِدَة مِنْ اللَّوْح الْمَحْفُوظ إِلَى بَيْت الْعِزَّة فِي السَّمَاء الدُّنْيَا ثُمَّ أُنْزِلَ بَعْد ذَلِكَ إِلَى الْأَرْض مُنَجَّمًا بِحَسَبِ الْوَقَائِع وَالْحَوَادِث وَرَوَى النَّسَائِيّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ اِبْن عَبَّاس قَالَ : أُنْزِلَ الْقُرْآن جُمْلَة وَاحِدَة إِلَى سَمَاء الدُّنْيَا فِي لَيْلَة الْقَدْر ثُمَّ نَزَلَ بَعْد ذَلِكَ فِي عِشْرِينَ سَنَة قَالَ اللَّه تَعَالَى: "وَلَا يَأْتُونَك بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاك بِالْحَقِّ وَأَحْسَن تَفْسِيرًا" وَقَالَ تَعَالَى: "وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاس عَلَى مُكْث وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا"[1].

نلحظ كيف استغرقت بعض القضايا القرآنية جهد المفسر كتوقيت نزول الوحي ووضعياته، ومقارنتها بالأنبياء السابقين –صلوات الله عليهم أجمعين– وشغلته عن الوقوف المركز عند مصطلح التفسير المحوري في سياق الآية.

هذه عيّنة فقط مما قيل في تفسير " أحسن تفسيرا"، أما عموم معنى السياق فيكاد يجمع المفسرون على أن المعنى: لا يأتيك الكافرون بالحق بشبهة أو اعتراض أو سؤال يخلطون فيه الحق بالباطل إلا جئناك بجوابه وهو القرآن الحق الذي يقطع ذريعتهم ويبطل شبهتهم بأحسن بيان وتفصيل[2].

1 – ابن كثير: تفسير القرآن، 304/10.

2 – يراجع في ذلك مثلا الطبري: جامع البيان، 267/19. ابن كثير: تفسير القرآن، 304/10. الرازي: مفاتيح الغيب، 79/24. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، ط1415هـ=1994م، 73/4. البغوي: معالم التنزيل، 83/6.

ثالثا: مفاتيح الفهم القرآني للتفسير:

لذا ومن خلال تأمّل الآية ونظمها، ومن خلال ما مرّ من مادة تفسيرية، وباستحضار مفهوم التفسير وما يتعلق به يمكن استنطاق الآية لتكشف لنا عن مفاتيح قرآنية مهمة في تحديد مفهوم التفسير ومتعلقاته.

1- التفسير جهد بشري مسدّد بالوحي خلافا لأمثال المشركين وشبهاتهم الباطلة المشوبة.

الآية حوت ثلاثة ألفاظ متقابلة (المثل- الحق- التفسير)، وترتيبها بهذه الصورة في نظم الآية مهم، إذ جاء الحق وسطا بين العقل المسدّد بالوحي[1] الباحث عن "أحسن التفسير" والعقل الشارد عن الوحي الجاري وراء الأمثال والشبهات.

2- الفاعل في "يأتونك" و "جئناك" يبرز جانبا ثانيا يدعم ما سبق، فمصدر الأمثال هو العقل البشري المجرّد، أما مصدر التفسير فهو الله وكتابه الحق وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

لذا فالتفسير لا يستقيم ولا يأخذ مشروعيته إلا إذا حافظ على مصدريته الإلهية والنبوية عبر النصوص المفسرة والموجهة للفهم[2].

3- المقابلة بين " يأتونك" و " جئناك" وربطها في أسلوب القصر(لا... إلا...) يحمل دلالة مهمة وهي استمرار عطاء النص القرآني كلما استدعي لتفسيره ردا على ما يرد في كل عصر ومصر من أمثال وشبهات واعتراضات تستجد باحثة عن موقف

[1] - يستخدم د. طه عبد الرحمن ثلاثة العقل المجرد/العقل المسدد/العقل المؤيد في دراسته القيمة: العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 2، 1997م، ص17، 58، 121.

[2] - لذلك عبرت الآية بالمثل للدلالة على أن العقل الذي لا يستند للحق والوحي إنما يستند إلى التمثيل، أي القياس على سابق، وهكذا كان حال المشركين الذين كانوا يستوردون الشبهات من عند أهل الكتاب ويذيعونها عن القرآن.

قرآني منها. وفي هذا دحض لرأي من يظن أن التفسير قد توقف مجال الاجتهاد فيه، وأنه ليس لنا إلا اتباع السلف فيما قالوا، ولا نملك إلا أن نختار أحد أقوالهم ولا نخرج عن مجموعها[1].

4- ويعضد هذا فهم المقصود بضمير الخطاب (الكاف) في ضوء القواعد التفسيرية الجليلة، فـ"العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص سببه" والخطاب للرسول-صلى الله عليه وسلم- خطاب لأمته، فالحق وأحسن التفسير هنا ليس قاصرين – كما هو واضح- على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعهده وصحبه، بل هو عام في أمة محمد إلى قيام الساعة.

فما ابتدع المدّ الشركي شبهة ومثلا إلا وجاء الرد الإلهي عبر نصوص القرآن وتفسيرها المعاصر المزامن لتلك الشبهات.

5- وحتى قبل تعميم الضمير، فاختصاصه بالنبي (صلى الله عليه وسلم) يحمل دلالات مهمة تتعلق بالعملية التفسيرية، فإن أي جهد تفسيري في أي عصر لا بد وأن يعود لعصر التنزيل، فلا غنى له عن سنة رسول (صلى الله عليه وسلم) وأسباب نزول الآيات – محل التفسير- وحوادث عصر النبوة المتعلقة بالموضوع (موضوع الآية)، وكذا تفسير النبي لها- إن وجد –، مع الاستعانة والاستفادة من فهوم الصحابة واجتهاداتهم فاختصاص الضمير بالنبي يضبط المرجعية النبوية للتفسير، كما يبين دور السنة المفسرة كأداة مهمة في التفسير.

6- لفظة "الحق" جاءت معرفة، دلالة على أن النص القرآني مطلق بل الوحي كله قرآنا وسنة – فكلاهما من عند الله-.

[1] – من الغريب أن يتبنى مثل هذا القول بعض المعاصرين مثل د. صبحي صالح في كتابه مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط27، 2007م، ص 290.

وهذا يدل على أن عطاءه التفسيري لا ينتهي مدده، كما سبق البيان، ويدل أيضا على أن التفسير البشري مهما ارتقت درجته ومرتبته يبقى نسبيا، يحتمل الصواب والخطأ، ومن الخطأ الجسيم أن ننقل القداسة من النص الإلهي المطلق " الحق" إلى الجهد البشري " أحسن التفسير"، هذا إذا كان قد استحق وصف الحسن أصلا، وحتى لو كان أحسن تفسير وصله العقل البشري يبقى بشريا غير مقدس.

وعكس هذا ما وقع في تاريخنا للأسف، فقد قدس النص وقدست معه فهوم السلف للنص، وتحول التفسير إلى مجرد ترديد وتركيب وترجيح لأقوال السلف[1].

7- خلافا لكلمة الحق، فقد جاءت كلمة "مثل" غير معرفة بـ (ال) دلالة على وهنها ونكارتها وعدم ارتكازها على ما يعرفها ويعضدها، فهي بالتالي أمثال شركية غير منهجية ولا ينظمها ناظم، إلا ناظم رفض الحق ومعاداته وإثارة الشبه حوله.

8- بينما جاءت كلمة تفسير مضافة إلى الحسن في أعلى صوره (صيغة أفعل التفضيل: أحسن) وفي هذا دلالة على قبوله ومشروعيته إذا حافظ على ارتباطه بالنص " الحق" الذي عطف عليه في نظم الآية.

9- أما وصف " أحسن" في حد ذاته، فيحمل دلالات عدة؛ فالواجب على المفسر أن يجتهد ويبذل وسعه ليفسر النص بأحسن تفسير يمكن أن يصله عقله وجهده.

ثم إنّ التفسيرات الواردة للنص منها الحسن والأحسن، وما دامت توصف بالحسن فتحتمل القبح أيضا، فقد يكون التفسير مرفوضا مردودا على صاحبه غير مناسب لمعنى النص ومقامه. و على كل فالمفسر ملزم بأن يختار تفسيرا ويعتبره

[1] – ينظر: الأسعد بن علي: نسبية المعرفة الدينية، ص32،33. و عبد الحميد بوكعباش: التفسير والمعرفة الحديثة، ص2

الأصح وينسبه للنص، وهذا أحد أوجه التفريق بين التفسير والتأويل المذكورة في كتب التفسير وأصوله، فالتفسير "القطع بالمراد الإلهي خلافا للتأويل" [1].

ثم يحمل وصف الحسن معنى هاما، وهو ضرورة عرض المادة التفسيرية في أحسن صورة لغويا وعقليا وشكليا... وفي هذا إشارة إلى حسن اختيار المنهج المعتمد في التفسير.

رابعا: سياق آية التفسير:

بعد هذه الجولة النظمية في النص القرآني، لا بد من وقفة سريعة مع سياق الآية. فالآية بداية تدل على واقعية العمل التفسيري. فكلما احتاج الواقع إجابات وحلول قرآنية لمشكلاته وقضاياه، تتحرك الجهود التفسيرية لتفسر النص وتسد حاجات الواقع، كما جاء القرآن نفسه وتنزل حسب الوقائع منجما طوال ثلاث وعشرين سنة.

إن المتدبر لسورة الفرقان تتجلى له أسباب ضلال المشركين وحيادهم عن سبيل الهداية مما دفعهم لضرب الأمثال لمخالفة القرآن ومحاربة أهله.

لخصت السورة ذلك في:

1. الإعراض عن الحق.

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾[2]

1. اتباع الهوى وتأليهه.

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [3]

2. نسيان الذكر.

[1] – قاله الماتريدي، وتناقلته كتب التفسير. ينظر ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير، ص4.
[2] – الآية 3 من سورة الفرقان.
[3] – الآية 43 من سورة الفرقان.

قال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [1]

3. هجران القرآن.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[2].

ولذلك غدت جهود المشركين هباء منثورا، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [3].

وهذا حال المشركين في كل زمان مع كل نبي، وهو ما ركزت عليه الآيات بعد آية التفسير، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا. وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا. فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا. وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا. وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا. وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [4].

كما بيّنت الآيات سوء جزاء المشركين مقابلا بجزاء المؤمنين، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا. بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا. إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا. وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا. لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا. قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً

[1] – الآية 18 من الفرقان.
[2] – الآية 30 من الفرقان.
[3] – الآية 23, الفرقان.
[4] – الآيات من 34 إلى 39– الفرقان.

وَمَصِيرًا. لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا. وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾[1].

كما فصّلت الآيات بعض أمثال المشركين الكاذبة؛

كقولهم أن القرآن إفك مفترى، وأساطير مكتتبة متلوة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[2].

وكاحتجاجهم على بشرية الرسول وطبيعته الاجتماعية، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا. أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾[3].

واكتمل إفك دعواهم بالمطالبة برؤيا الله والملائكة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[4].

وقد تجلّى من خلال هذا الاستعراض السريع لبعض سياقات سورة الفرقان، أسباب ضلال المشركين وحيادهم عن سبيل الهداية، مما دفعهم لضرب الأمثال لمخالفة القرآن ومحاربة أهله، ولخصت السورة ذلك في الإعراض عن الحق واتباع الهوى وتأليهه مع نسيان الذكر وهجران القرآن. ولذلك غدت جهودهم هباء منثورا. وهذا حال المشركين في كل زمان مع كل نبي، وهو ما ركزت عليه الآيات بعد آية التفسير.

[1] – الآيات 10–17.الفرقان.
[2] – الآيات 4–5 الفرقان.
[3] – الآيات 7–8 الفرقان.
[4] – الآية 21 الفرقان.

كما بينت الآيات سوء جزاء المشركين مقابلا بجزاء المؤمنين. كما فصلت الآيات بعض أمثال المشركين الكاذبة.[1]

– ومن هنا تتبدى لنا بعض المحاذير التي يجب على المفسّر اتقاؤها، فالمتعامل مع النص القرآني يجب أن يقبل الحق متجردا بقلبه وعقله مستعدّا لهداه، ملازما للذكر قولا وعملا.

– كما عليه أن يستحضر تجارب الأنبياء عموما والنبي محمد – صلى الله عليه وسلم– خصوصا ليستثمرها في عمله التفسيري.

– ثم عليه أن يحتسب بعمله رضا الله وجزاءه الأخروي.

– أما النماذج التي ذكرها القرآن فتختزن منهج القرآن في الجدال وردّ الدعاوى ونقضها من أسسها[2].

خامسا: استخلاص ختامي

من خلال هذه الوقفة مع الآية الكريمة تتجمع لنا مجموعة من الدلالات الموجهة لمفهوم التفسير في القرآن الكريم، تفيد أن التفسير جهد بشري نسبي مسدد بالوحي الإلهي المطلق، وهو اجتهاد مستمر يحتاج لقلب خاشع وعقل خاضع ونفس متقية متجردة عن الهوى، هذا الجهد والاجتهاد يستحضر الواقع ويستفيد من التاريخ ويوظف كل الأدوات المتاحة لحسن فهم النص وتفهيمه للناس وإنذارهم به.

وباستحضار المعنى الاصطلاحي للتفسير، نجد تطابقا شبه كلي بين المعاني المستفادة من النص وسياقه القرآني من جهة، وتعريفات المفسرين من جهة ثانية مع

[1] – يراجع السياق التفسيري للسورة في التفاسير المركزة على نظم السورة، ينظر مثلا: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، ط1404هـ/1984م، 381/13.

[2] – ينظر مثلا عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط 1، 1402هـ/1982م.

ملاحظة أن التعاريف ركزت أكثر على أدوات التفسير، بينما ركز النص القرآني على الشرائط الروحية والمعنوية الموجهة للعملية التفسيرية والضامنة لنجاحها.

أي بعبارة أخرى أكّد القرآن على الجانب المعنوي (الأخلاقي) فيما أكدت التعاريف على الجانب العلمي الأكاديمي، وبمزاوجة الاثنين يتحقق البعد العملي للتفسير.

وقد أثبتت هذه المحاولة المتواضعة –بالمثال التطبيقي– أهمية استحضار الاستعمال القرآني في بناء المفاهيم والمصطلحات، وعدم الانسياق المستعجل وراء التراكمات الموروثة في الكتب المتناقلة.

كما حاولت أن تبين ثراء النص القرآني وكرمه اللامحدود، إذا أحسنا استحضاره واستنطاقه وتوظيفه.

كما ساهمت الدراسة في محاولة إقناع العقل المسلم المعاصر انه لا يستعلي مفهوم –أيا كان– على المراجعة وإعادة التأسيس، ولو كان مفهوم التفسير نفسه، الذي يعتقد الكثير من المصنفين والمعرفين أنه من العلوم التي لا يتكلف لها حد، لأنه أعرف من أن يعرّف!. [1]

وعليه تدعو هذه الدراسة إلى النسج على منوالها، والتحلي بالشجاعة المعرفية والمنهجية الكافية لمراجعة منظومتنا المفهومية الزاخرة بالدلالات اللغوية والاصطلاحية، التي فعل فيها الزمن فعلته، وتكدس عليها الفهم التراثي المتكتل، وغّيب في كثير منها التأسيس القرآني الواعي، الذي تختزنه آي القرآن الكريم، وينتظر فقط من يفعّله ويتفاعل معه ليعيد بعث وإحياء مصطلحاتنا ومفاهيمنا الإسلامية في هذا العصر.

[1] – ينظر: محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، 15/1. وقد تنوقل هذا القول بعد الذهبي منسوبا إليه.

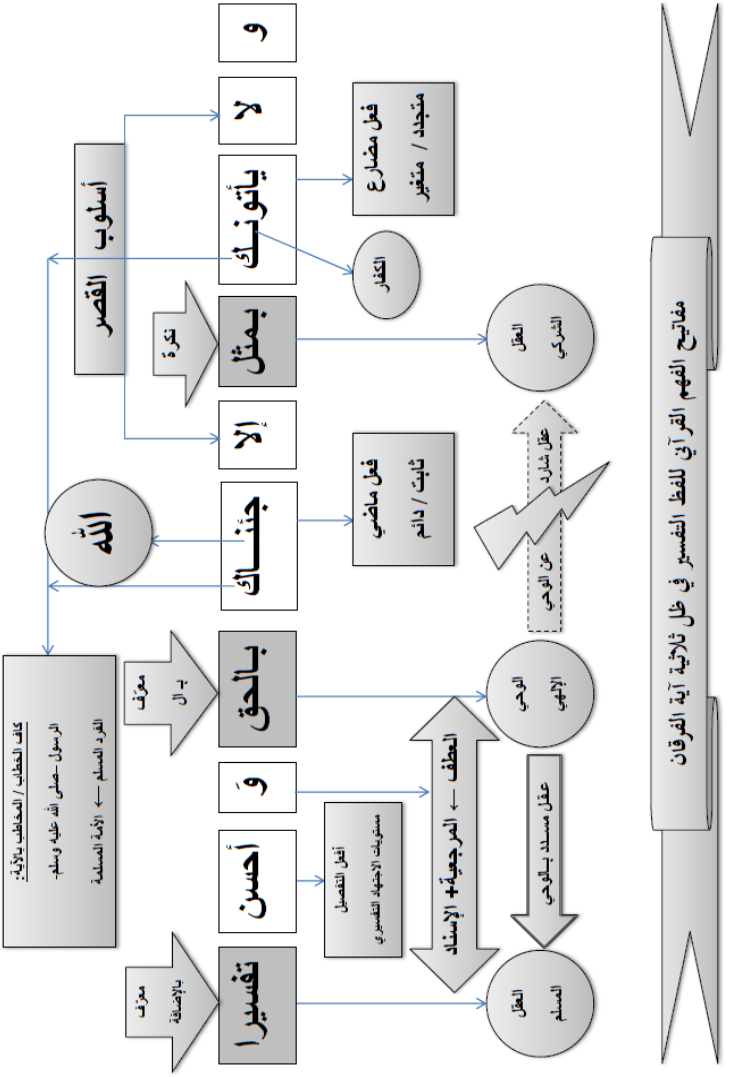
مفاتيح الفهم القرآني للفظ المفسر في ظل ثلاثية آية الفرقان
العقل المسلم
الوحي الإلهي
عقل مسدد بالوحي
العطف ← المرجعية+ الإسناد
أفعل التفضيل
مستويات الاجتهاد التفسيري
تفسيرا
أحسن
وَ
بالحق
جئناك
الله
كاف الخطاب / المخاطب بالآية:
الرسول -صلى الله عليه وسلم-
الفرد المسلم ← الأمة المسلمة
معرّف بالإضافة
معرّف بـ ال
عن الوحي
عقل شارد
العقل الشركي
الكفار
فعل ماضي
ثابت / دائم
فعل مضارع
متجدد / متغير
أسلوب القصر
نكرة
إلا
بمثل
يأتونك
لا
و

مراجع الدراسة:

1. ابن باديس عبد الحميد: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تقديم: محمد البشير الإبراهيمي، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط 1، 1402هـ/1982م.
2. ابن تيمية تقي الدين: مقدمة في أصول التفسير، تحقيق: محمود محمد محمود نصار، مكتبة التراث، القاهرة،
3. ابن كثير الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل ، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: مصطفى السيد محمد وآخرون، مؤسسة قرطبة، جيزة، مصر، ط 1، 1421هـ/2000م
4. ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي: لسان العرب، دار صادر–بيروت–لبنان، ط1، 1968
5. أبو حجر أحمد عمر: التفسير العلمي للقرآن في الميزان، دار قتيبة، بيروت–دمشق،ط1، 1991/1411
6. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1422هـ/2001م
7. الأسعد بن علي، نسبية المعرفة الدينية والمنهج التكاملي في تفسير القرآن، مجلة البصائر، القاهرة،مصر، ع42، س19، صيف 1429هـ/2008م
8. البغوي الحسين بن مسعود ، معالم التنزيل، تحقيق وتخريج: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة للنشر، ط4، 1417هـ/1997م
9. البقاعي برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، ط1404هـ/1984م
10. بوكعباش عبد الحميد ، التفسير والمعرفة الحديثة، رسالة دكتوراه، نوقشت سنة 2003م، كلية أصول الدين، جامعة الجزائر
11. الذهبي محمد حسين: التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة – مصر، ط4، 1409هـ/1989م
12. الرازي فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر ، التفسير الكبير مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1، 1401هـ/1981م
13. الزركشي برهان الدين ، البرهان في علوم القرآن
14. السيوطي جلال الدين عبد الرحمن ، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، ط1972
15. الشوكاني محمد بن علي بن محمد: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، ط1415هـ=1994م
16. صبحي صالح : مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط27، 2007م
17. الطبري أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1، 1420هـ/2000م
18. طه عبد الرحمن: العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 2، 1997م
19. الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ط 1986
20. القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1، 1427هـ/206م
21. مساعد مسلم عبد الله آل جعفر: أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ط1405،1هـ/1984م.
22. سعاد كوريم، تفسير القرآن بالقرآن، دراسة في المفهوم والمنهج، مقال في مجلة إسلامية المعرفة، السنة 13، العدد 9، صيف 1428 هـ/2007م. وأصل المقال بحث مقدم لمؤتمر مناهج تفسير القرآن الكريم وشرح الحديث الشريف الذي نظمته كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية بماليزيا في تموز يوليو 2006 م .